

الدرس التاسع :

كن في الدنيا كأنك غريب

روى البخاري في صحيحه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر يقول : إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخُذْ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك ^(١) .

أهمية تذكُّر الآخرة :

إنَّ مشكلة الناس أنهم يحيون في الدنيا بعقلية الخالدين ، يظنون أن الحياة لهم دائمة ، فإن لم تكن دائمة ، فهم يحسبون أن الموت عنهم بعيد ، ودواء هذا كله ، أن يُقَصِّرَ الناس من آمالهم ، وأن يعيشوا على ذكر من الآخرة ، وأن يجعلوا الآخرة نُصَبَ أعينهم . ومن أجل هذا ، يوصي رسول الله ﷺ ، ابن عمر بقوله : « كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » .

فإنَّ من الخطر أن يتخذ الإنسان الدنيا دار إقامة ، ويتخذها وطنًا دائمًا ، ويحسب أن لا رجيل له عنها ، أو هكذا يفكر . . . وهكذا يعامل نفسه . . . وهكذا يعامل الناس .

إنَّ عليه أن يعرف أن الدنيا دار ممرّ ، لا دار مقرّ ، كما قال العبد المؤمن الصالح ، مؤمن آل فرعون . . . وهو يدعو قومه إلى الله ، ويقول لهم : ﴿ يَنْقُومِ آتِبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿ (غافر: ٣٨، ٣٩) .

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (٦٤١٦) ، وأحمد (٤٧٦٤) ، والترمذي (٢٣٣٣) ، وابن ماجه (٤١١٤) ، كلاهما في الزهد ، عن ابن عمر .

الحياة الدنيا هي متاع ؛ بل متاع قليل ، بل هي متاع الغرور . . . والآخرة هي دار القرار ، دار الإقامة . . . دار الخلود .

فليكن الإنسان في الدنيا على إحدى هاتين الحالتين : حال الغريب ، أو حال عابر سبيل .

حال الغريب :

حال الغريب الذي يُقيم في أرض وهو يعلم أنها ليست أرضه ، ويُقيم في بلد وهو يعلم أنها ليست وطنه ، فهو دائم الحنين إلى وطنه ، دائم الشوق إلى أرضه ، إلى مسقط رأسه ، ومهد طفولته ، ومهوى فؤاده ، حيث يجتمع شمله بأحبائه وأصحابه . . . فهذا هو شأن المؤمن .

فوطن المؤمن ليس هو الدنيا ، إنما هو الجنة .

فإن الله حينما خلق آدم ، أسكنه وزوجته الجنة ، ثم أهبطه منها ، ووعد وذريته من الصالحين بالرجوع إلى المسكن الأول . . . إلى الجنة . ولهذا فإن المؤمن يحنُّ إلى الوطن الأول :

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحينه أبداً لأول منزل
يحنُّ إلى الجنة ، التي كان فيها أبوه وأمه ، ورضي الله عن ابن القيم إذ يقول في ميميته :

فحيّ على جنّات عدنٍ فإنّها منازلك الأولى وفيها المخيمُ
ولكننا سبيّ العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم؟
نحن قد سبانا الشيطان ، وأصبحنا أسرى له ، فهل ترى نُفكّ من إسهاره ؟ وهل ترى نخرج من داره ؟ وهل ترى نعود إلى دارنا ووطننا الأول . . . الجنة ؟

حال عابر السبيل :

أن تعتبر نفسك غير مُقيم قط ، وإنما أنت عابر سبيل ، أنت مسافر أبداً ، تقطع مرحلة وراء مرحلة ، ومنزلة عقب منزلة ، حتى تذهب إلى مقصدك وإلى مأواك ، وإلى دار مقامتك .

وهكذا نحن - أيها المسلمون - نحن مسافرون . . . وراحلتنا الليل والنهار . . .
مركبنا الليل والنهار . . . اللذان يُليان كل جديد ، ويُقربان كل بعيد ، وطالما أهلكا
القرون من قبلنا ، ﴿ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا
اللَّهُ ﴾ (إبراهيم: ٩)، ومع هذا ، مع أن الليل والنهار يعملان في هدم الحياة ، ونقص
الأعمار ، وتقريب الآجال ، لم يزالا جديدين .

الليل يُسلمنا إلى النهار ، والنهار يُسلمنا إلى الليل ، ونحن بينهما على سفر ،
وكلاهما يُفضي بنا إلى الآخرة . . . ومَن كان الليل والنهار مطيَّته فهو يُسار بهم وإن
لم يَسِر ، وهو سائر إلى الموت لا محالة .

سأل الفضيل بن عياض رجلاً : كم عمرك؟ فقال له : ستون سنة . قال له : إذن
فأنت منذ ستين عاماً وأنت تسير إلى ربك ، فيوشك أن تبلغ . فقال الرجل : إنا لله
وإنا إليه راجعون . فقال له الفضيل : أتدري معنى ما تقول؟ مَن علم أنه الله عبد ،
وأنه إليه راجع ، فليعلم أنه بين يدي الله موقوف ، ومَن علم أنه موقوف ، فليعلم أنه
مستول ، ومَن علم أنه مستول ، فليُعد للسؤال جواباً .

فقال الرجل : وما النجاة؟ وما الحيلة؟
فقال الفضيل : أن تُحسن فيما بقي ، يُغفر لك ما مضى ، وإن لم تُحسن فيما
بقي ، أخذت بما مضى وبما بقي^(١) .

مركب الموت :

كلنا مسافرون . . . ننتظر قطار الموت ، ننتظر هذا المركب ، ليوصلنا إلى الله ،
إن اليوم أو غداً أو بعد غد .

كل يوم ينقضي من حياتنا ، إنما هو جزء من عمرنا ، يذهب وينطوي .
إننا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يُدنى من الأجل
فاعمل لنفسك قبل الموت مُجتهداً فإنما الربح والخسران في العمل

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١١٣/٨) .

كل يوم يمضي إنما هو انسلاخ جزء من عمر الإنسان ، ورحم الله الحسن البصري الذي يقول : يا ابن آدم ، إنما أنت أيام مجموعة ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك ، حتى إذا انتهت أيامك انتهيت كُلك !

وهكذا تمضي الأيام والليالي ، ونحن مسافرون إلى الله ، وما هذه الأيام إلا مراحل على الطريق .

وما هذه الأيام إلا مراحل يحث بها داع إلى الموت قاصد
وأعجب من ذا لو تأملت أنها منازل تُطوى والمسافر قاعد
من حِكم المسيح عليه السلام :

ولقد قال المسيح عليه السلام ، لتلاميذه : الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها !
هل يبني أحد على القنطرة؟ لا . . . إنه مكان عبور ، وليس مكان بناء وإقامة
وعمران .

وكان المسيح عليه السلام ، يقول : مَنْ ذا الذي يبني على موج البحر داراً ، تُلكم
الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً ، لا تتخذوا الدنيا لكم ربا ، فتتخذكم لها عبيداً^(١).

زاد الراكب :

هكذا أوصى الأنبياء ، وهكذا أوصى رسول الله ﷺ ، أوصى غير واحد من
أصحابه : أن يكون بلاغه من الدنيا كزاد الراكب .

ولما دخل عليه بعض أصحابه ، ووجد الحصار قد أثار في جنبه ، وصعب عليه
ذلك ، وعظم في نظره وعلى نفسه : أن يؤثر الحصار من خشونته ، في جنب
رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كسرى وقيصر ينمان على الديباج والإستبرق ،
وأنت تنام على الحصار حتى يؤثر في جنبك؟ فقال : « ما لي وللدنيا ؟ ! إنما مثلي

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ص ٥٨ .

ومثل الدنيا ، كمثل راكب قال - من القيلولة - ^(١) في ظل شجرة في يوم صائف ، ثم راح وتركها ^(٢).

فهذه الدار دار مَقِيل ، وليست دار إقامة ، ولكن الناس عن ذلك غافلون .

الفرح بفضل الله لا بالدنيا :

إنَّ هذه الحياة ليست حياة خلود أبداً ، لا تستحق أن يفرح الإنسان بها ، إلا بما أُوتِيَ من فضل الله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس: ٥٨).

كيف يفرح بالدنيا مَنْ تهدم ساعاته فيها يومه ، وأيامه تهدم شهره ، وشهوره تهدم عامه ، وأعوامه تهدم عمره؟ وهكذا حتى تنتهي هذه الحياة ، التي عليها يتكالب الناس ويتنافسون !

وفي رواية أن النبي ﷺ ، يقول لابن عمر : «وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ» ^(٣) ، أي : اجعل نفسك كأنك واحد من أهل القبور ، فتوشك أن تكون واحداً منهم .

مَنْ يدري أنك غداً أو بعد غد أو اليوم . . . ستكون من أهل القبور . . . ولهذا كان ابن عمر يقول ، آخِذاً من توجيه النبي ﷺ : إذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح .

(١) عن ثابت ، عن أنس قال : اشتكى سلمان ، فعاده سعد ، فرآه يبكي ، فقال له سعد : ما يبكيك ، يا أخي ؟ أليس قد صحبتَ رسول الله ﷺ ؟ أليس . . . أليس ؟ قال سلمان : ما أبكى واحدة من اثنتين ، ما أبكى ضناً للدنيا ، ولا كراهية للآخرة ، ولكن رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً ، فما أراني إلا قد تعديتُ . قال : وما عهد إليك ؟ قال : «عهد إليَّ أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب» . ولا أراني إلا قد تعديتُ . . . قال ثابت : فبلغني أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهماً ، من نفقة كانت عنده . رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٠٤) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٢) .

(٢) رواه أحمد (٤٢٠٨) ، وقال منخرجه : صحيح ، وهذا إسناد حسن ، وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٤٤) ، وأبو يعلى (٤٩٩٥) ، والحاكم في الرقاق (١٠٤/٤) ، وصححه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب الزهد وقصر الأمل (٣١١/٧) ، عن عبد الله بن مسعود .

(٣) سبق تخريجه ص ٧١ .

لا يدري أحد ماذا بقيَ من عمره ، وإلى أيِّ سنٍّ سوف يعيش؟!
لا يدري ابن العشرين إذا كان يعيش إلى الخامسة والعشرين أو الثلاثين ؟. حتى
يؤجل توبته وإنابته إلى السبعين .

ما يدري أحدٌ متى يموت :

ذهب أحد السلف يطرق باب أخ له من الصالحين ، فقال أهل البيت : لقد خرج
في حاجة له . قال : ومتى يرجع؟ فردت عليه جارية صغيرة من أهل البيت ، تقول
له : يا هذا ، مَنْ كانت نفسه بيد غيره ، فَمَنْ ذا الذي يعلم متى يرجع؟!
كان بعض السلف إذا نام يقول لأهله : أستودعكم الله ، فلعلها النومة التي لا قيام
لي منها . يقول ذلك كلما أراد أن ينام .

وكان يجعل الواحد منهم وصيته وعهده مكتوباً تحت وسادته ، فلعله لا يدركه
الصباح!

بالأمس كان لنا زميل معلّم ، هذا الزميل صام أمس مع الصائمين ، وأفطر مع
المفطرين ، وصلى المغرب كسائر المسلمين ، وتوضأ وانتظر أن يصلي العشاء
والتراويح مع المصلين ... وما جاء العشاء إلا وقد جاءه أجله ... سكت القلب ...^(١)
ما الفرق بين الحياة والموت؟! هذا الحاجز الرقيق ، هذا الخيط الدقيق ، يسكت
القلب أو يسكن بعد حركة ، ذبحة صدرية ، سكتة قلبية ، حادثة مفاجئة ، فإذا الذي
كان في الأحياء ، صار في الأموات ، وإذا الذي كان في القصور ، صار من أهل
القبور ، وهكذا هي الحياة .

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِّيَّةِ جَارٌ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا حَتَّى يُرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ^(٢)

(١) وما أصدق قول القائل :

من بين أهل وإخوان وجيران
حيًا فما أقرب القاصي في الداني

كم كنت تعرف ممن صام في سلف
أنفاهم الموت واستقباك بعدهم

(٢) من شعر أبي الحسن التهامي في رثائه لابنه .

بعد أن كان يقول حَدَّثَ كذا . . . وحدث كذا . . . يخبر عن حال غيره ، يصبح هو خبراً من الأخبار ، مات فلان ! هذه الكلمة تنتظر كلاً منا أن يقال فيه ، يوماً ما قريباً أو بعيداً .

الدنيا دار أكدار وأحزان :

هذا شأن الدنيا . . . فإنها دار ممر إلى دار مقر . . . ومن طبيعتها أنها دار أكدار وأحزان .

جُبِلَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا صَفَوْا مِنَ الْآلَامِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفَ الْأَيَّامِ ضِدَّ طَبَاعِهَا مُتَطَلِّبِ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ^(١)

وكم من حوادث تفجع الناس ، وكم من أخبار يسمعونها الناس . . . عن الموت السريع والموت المفاجئ ، ولكن الناس - للأسف - يعيشون في الدنيا وكأنه ليس بعد الحياة موت ، وكأنه ليس بعد الموت بعث ، وكأنه ليس بعد البعث حساب ، وكأنه ليس بعد الحساب جنة أو نار .

الناس يعيشون في الدنيا كأنهم خالدون ، فعلوها يحرصون ، وعلى متاعها يتهافتون ، وعلى زخارفها يتقاتلون ، يريدون أن يأكلوها بالباطل اليوم ، لتأكلهم النار بالحق غداً .

الموت قريب :

يا معشر المسلمين ، الموتُ أقربُ من ذلك . . .

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

فَلْيَنْتَظِرْ كُلُّ مَنْهَا الْمَوْتَ ، وَلْيَقْصُرْ مِنْ أَمَلِهِ ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿ (لقمان: ٣٤) .

(١) من شعر أبي الحسن التهامي المتقدم .

﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴿ (المنافقون: ١٠، ١١).

بدل أن نقول ذلك ساعة الموت ، فلنعمل الآن .

يقول ﷺ : « اغتسم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك »^(١).

* * *

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣٤١/٤) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٢٤٨) ، عن ابن عباس ، وقال العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن (١٩٨/٤) ، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب . (٣٣٥٥) .